شيراز

نافذة على الادب الايراني

تصدر عن
مركز الفكر والفن الاسلامي
المشرف العام :حسن بنيانيان

العدد الاول /ربيع ٢٠٠٤

نـافـذة /رئيس التحرير..... ٢
حوار مع الشاعر قيصر امين بور
طوفان نوح وطوفان الروح ٤

دراسات

مترجم أغاني شيراز/صادق خورشا..... ٢٦
جلال آل احمد قلم غاضب وقلب حنون/ على اكبر كسمائي ٣٦
حافظ الشيرازي
في كتابات الباحثين العرب/ الدكتور صادق آئينه وند ٥٢

شعر

هوشنك ابتهاج ٦٠
ضياء موحد ٦٦
سلمان هراتى ٧٢
علي رضا قزوة ٨٠

قصص

ابن الناس / جلال آل احمد ٨٦
حديث آخر عن القفص/نادر ابراهيمي..... ٩٢
معاون، توقيع، مكتب، ختم / خسرو شاهاني..... ٩٦
الامهات /محبوبة مير قديري..... ١٠٢
سوناتة الشقائق /رحمت حقي بور..... ١١٣

رئيس التحرير: موسى بيدج
المدير الفني والرسوم: باسم الرسام
المستشار: علي رضا قزوة /تنضيد الحروف: بتول يگانه -امير الزبيدي
لجنة الترجمة: حيدر نجف، سمير ارشدي، صادق خورشا، موسى بيدج

سعر النسخة :١٢٠٠٠ ريال ايراني

المراسلات: طهران -شارع حافظ -تقاطع سمية -مركز الفكر والفن الاسلامي مكتب مجله
"شيراز" طهران -ص.ب: ١٥٨١٥/١٦٧٧ - تلفاكس: ٨٨٩٥٥٤٣

علي اكبر كسمائي
كاتب وناقد /توفي ١٩٩٣

قلم غاضب و قلب حنون

جلال آل احمد

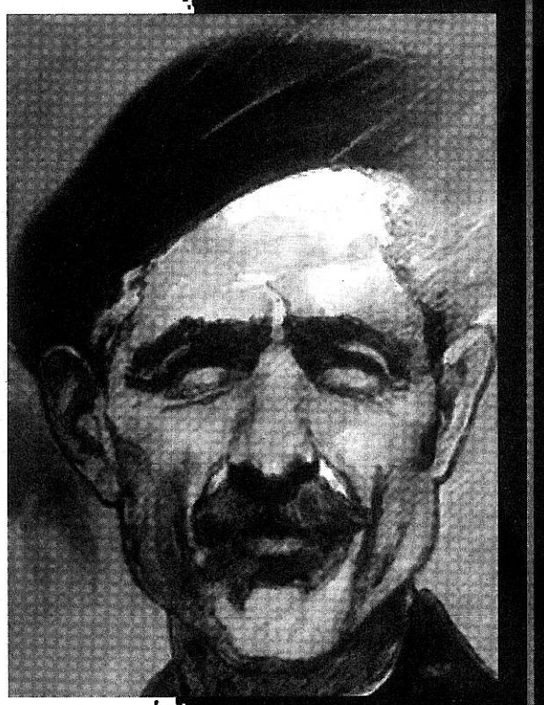

جلال آل احمد في سطور

- ولد في طهران عام ١٩٢٣ م
- عمل في حقل التربية والتعليم وكان معلماً لعدة سنوات وفصل من العمل لفترات طويلة.
- كانت له في شبابه ميول يسارية ونشط في الاحزاب اليسارية لعدة سنوات، بيد أنه في أواخر عمره عاد الى التراث والدين منادياً بهما.
- تابع دراسته الجامعية حتى آخر مراحل الدكتوراه، لكنه امتنع اخيراً عن الدفاع عن رسالته الجامعية.
- نشرت له في الصحف العديد من المقالات النقدية.
- اشتهرت رحلاته التي دونها اثناء اسفاره الى مكة المكرمة والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي واسرائيل.
- ألف كتباً بحثية عديدة حول مناطق مختلفة من ايران.
- آثار كتاباه النقديان «نزعة التغريب» و «المستنيرون، خدمات وخيانات» ضجة كبرى في ايران وخلقا له الكثير من الاصدقاء والاعداء.
- له عدة مجاميع قصصية ورواية بعنوان «مدير المدرسة».
- توفي عام ١٩٦٩ عن عمر لم يتجاوز السادسة والاربعين.

«الحياة مريحة جداً للانسان عديم التفكير : أكل ونوم واعمال بهيمية . أما مع التفكير فلن تكون في دعة و راحة حتى لو كنت في جنان الخلود. لماذا فرّ ابوالبشر آدم من الجنة ؟ لأن عقلاً حلّ في رأسه وراح يطرح الاسئلة تلو الاسئلة: كيف و لماذا ؟ كيف ولماذا؟ ما هي في تصوركم الامانة التي اشفقت الجبال من حملها وحملها الانسان ؟ ترك آدم حياة البهائم في الجنة وسافر الى عالم العقل والمسؤولية الضاجّ بالشكوك والاستفهامات، الى عالم الانسانية الطافح بالهول والفزع».

جلال آل احمد، من كتاب «نون والقلم»

يقول سارتر : «اينما حطّ الظلم رحاله، كنّا نحن الكتاب مسؤولين عنه». وبذا لو اعتبرنا الكاتب «ضمير المجتمع» و الكتابة «صورة الحياة» لكان جلال آل احمد من بين العدد القليل جداً من الكتاب الايرانيين المعاصرين)الذين يصدق عليهم لقب الكاتب الملتزم وتصدق الكتابة الملتزمة بالحق والحقيقة على اعمالهم واحوالهم(ابرزهم وارفعهم مكانة في نظر من طالع كل مؤلفاته واطلع على احواله وسيرته.

اذا جاز لنا اعتبار «بُزُرك علوى» قاص حيوات المستنيرين، و «صادق جوبك» راوية احوال العوام الناجح، وجب اعتبار جلال آل احمد قاص الفئتين معاً، أنه قاص الحياة الايرانية. وهو ليس قاصاً فحسب، بل وكاتب مقالات ورحلات وصحفي بالمعنى الدقيق للكلمة. انه على غرار «صادق جوبك» في استلهامه الحياة الايرانية العامية، احد ألمع رموز مدرسة تفتحت مع «صادق هدايت» ألا انه فضلاً عن كونه صاحب قلم كان صاحب عمل ايضاً. لقد كان فارس الرأي والعمل كلاهما وممن ينزلون الى الساحة بكل ثقلهم، بل ويعتبر السكوت والجمود كفراناً للنعمة. وفي حين كان الجميع ينشدون السلامة والعافية عند أعلافهم ومصالحهم المادية، نراه يقول على لسان ميرزا أسدالله في «نون والقلم» :

«... ألفيت أن هذا الجسد لو لم يكن مديناً، لو لم يكن مديناً لكل هذه الأنعم التي يهدرها، لأمكن التنحّي جانباً بكل سهولة والاكتفاء بالتفرج ونسج الاخيلة واللجوء الى الشعر والعرفان. ولكن لا يمكن شكر كل هذه النعم بالسكون. هذا الهواء، هذه الصداقة، هذه الانفاس، ابني حميد هذا، هذه السجادة التى حيكت اطرافها (اشارة الى الاعمال الفنية الابداعية، كالكتابة مثلاً) شكر كل واحدة من هذه النعم يجب ان يتم بالعمل لا بالسكون. السكون والسكوت ليس مكافأة لأي شيء».

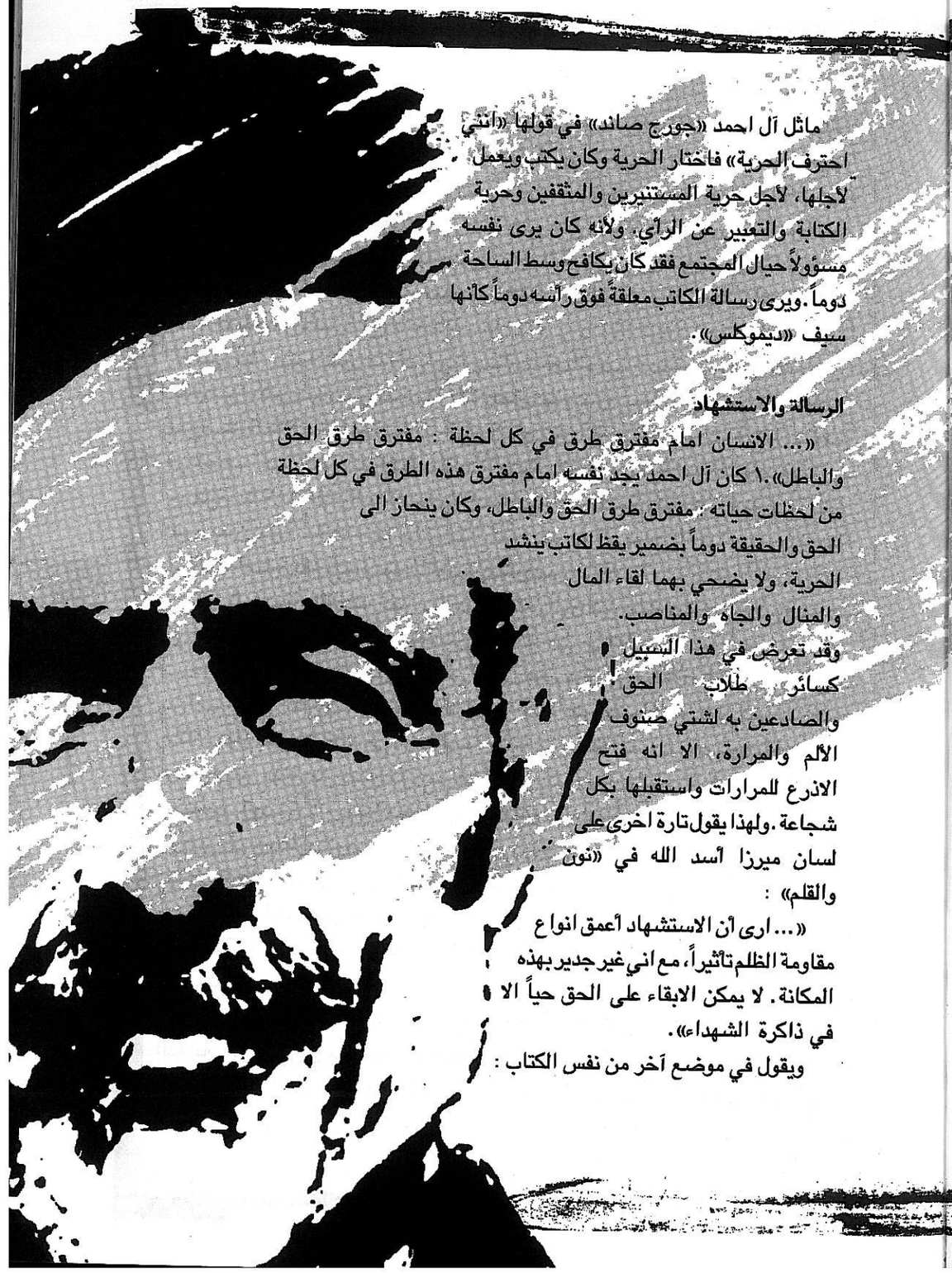

ماثل آل احمد «جورج صاند» في قولها «انني احترف الحرية» فاختار الحرية وكان يكتب ويعمل لأجلها، لأجل حرية المستنيرين والمثقفين وحرية الكتابة والتعبير عن الرأي. ولأنه كان يرى نفسه مسؤولاً حيال المجتمع فقد كان يكافح وسط الساحة دوماً. ويرى رسالة الكاتب معلقةً فوق رأسه دوماً كأنها سيف «ديموكلس».

الرسالة والاستشهاد

«... الانسان امام مفترق طرق في كل لحظة : مفترق طرق الحق والباطل». ١ كان آل احمد يجد نفسه امام مفترق هذه الطرق في كل لحظة من لحظات حياته : مفترق طرق الحق والباطل، وكان ينحاز الى الحق والحقيقة دوماً بضمير يقظ لكاتب ينشد الحرية، ولا يضحي بهما لقاء المال والمنال والجاه والمناصب.

وقد تعرض في هذا السبيل كسائر طلاب الحق والصادعين به لشتى صنوف الألم والمرارة، الا انه فتح الاذرع للمرارات واستقبلها بكل شجاعة. ولهذا يقول تارة اخرى على لسان ميرزا أسد الله في «نون والقلم» :

«... ارى أن الاستشهاد أعمق انواع مقاومة الظلم تأثيراً، مع اني غير جدير بهذه المكانة. لا يمكن الابقاء على الحق حياً الا في ذاكرة الشهداء».

ويقول في موضع آخر من نفس الكتاب :

«لهذا السبب فاني انظر الى العالم من أعين الشهداء» ... الشهادة، وهي التعبير الاخر لرسالة الكاتب فى ذهن آل احمد، تجد لها تعريفاً في موطن آخر من كتاب «نون والقلم» بالنحو التالي :

«... الان استطيع ان افهم لماذا يقبل البعض على الاستشهاد، لأنهم يخسرون اللعبة ولايرتضون الفرار. لذلك يبقون ويتقبلون تبعات الخسارة. حينما يفر الانسان من شيء أو مكان، معنى ذلك انه ما عاد يحتمل ذلك الشيء أو المكان. وانا اريد أن أتحمل. انها بداية الامتحان بالنسبة لى».

على هذا، ربما كان الكاتب الملتزم بالحق أو الكاتب الحقيقي، اقرب الناس الى القديسين. لأنه يحمل بدوره رسالة كما يفعل القديسون: رسالة في حقوق الجماهير، وفي سبيل الصلاح والحقيقة والخير. لهذا لن يكون من الغريب أن يكتب احدهم قبل سنوات في وصف أحد الكتاب أنه «كاتبٌ ملهَم» يُلهم ما يكتب كما يلهم الانبياء الوحي.

في سنة ١٩٥٧ قال البيركامو في جامعة اوبسالا بمناسبة منحه جائزة نوبل : «كتّاب اليوم يعون جيداً حقيقة انهم اذا تحدثوا شُنّت ضدهم الهجمات النقدية واذا تواضعوا وسكتوا، امتشق الجميع سيوف اللوم فى وجوههم.

في مثل هذه الحالة يفقد الكاتب الأمل في الاعتزال والانشغال بافكاره وصوره الذهنية. في الزمن الماضي، كان التفرد والاعتزال ممكناً على مر التاريخ.

من لم يكن راغباً في تصديق أو تكذيب احوال عصره، كان بمستطاعه الصمت أو التحدث عن أمور اخرى. أما اليوم حيث انقلبت كل الاشياء رأساً على عقب، اكتسب حتى الصمت معنى هائلاً... واضحى كل فنان في عداد المجدّفين داخل سفينة عصره، رغم علمه بأنه لايوجد هناك سوى حفنة من السجناء المصفدين بالأغلال، أو أن السفينة لا تسير بالاتجاه الصحيح. أجل، كلنا وسط المحيط، وعلى الفنان ايضاً شأنه شأن الاخرين، أن يجدّف من دون أن يستطيع الموت. لا يحق له الموت. عليه ان يواصل حياته ويسلك سبيل عمل ابداعي. انه ليس بعمل سهل اطلاقاً. على الفنانيين ان يتحسروا على الازمنة المنصرمة».

ولكن في العالم الذي يساوي فيه «سارتر» و «كامو» بين رسالة الكاتب والفنان، وبين المسؤولية الضميرية والاجتماعية الهائلة، ويرفعون مكانتها الى درجة التضحية والاستشهاد، ويقولون ان على الفنانين التحسر على دعة الازمنة الغابرة، لايزال ثمة في انحاء العالم المختلفة كتاب وفنانون يقبعون بدعة وراحة بال فرحين بافكارهم وصورهم الذهنية التي يعتزون بها اشد الاعتزاز. ووسط مثل هؤلاء الكتاب والفنانين الخاوين الجانحين الى العافية، يرفع آل احمد نداء رسالة الكاتب وضرورة تضحيته في سبيل الحق.

يرى آل احمد نفسه وسائر الكتاب الرساليين الامناء على «تراث الانسانية» ... و كتابه «نون والقلم» وهى قصة رمزية، ربما كان الأول بين الاعمال النثرية الايرانية، الذي يعلن عن رسالة الكاتب. ليس ميرزا أسد الله في هذا الكتاب سوى جلال آل أحمد ذاته. كما نجد فيه كتاباً آخرين ساروا في طرق ابتعدت بهم عن رسالة الكاتب. ان هذا الكتاب رسالة مفتوحة لمن يتعين عليهم صيانة «تراث الانسانية» أو صيانة ما وصفه آل احمد «الشيء الذي سيصل الاجيال الاتية بعيداً عن كتاب التاريخ العفن».

«... مجرد انني واياك تحركنا بدافع من أمل، ووضعنا الشهداء نصب اعيننا، فقد اردنا أن نحفظ تراثهم. صحيح أن الاستشهاد لايقصر ايادي الظلم عن ارواح الناس واموالهم، الا انه ينزع سلطان الظلم عن ارواح الناس. ويسلط عليها ذاكرة الشهداء، وهذه هي امانة الجماهير. اجسادهم تخضع لسلطان الظلم، أما ارواحهم فتتمرد.

هذا هو تراث الانسانية. وهذا هو ما سيصل الاجيال الاتية بعيداً عن كتاب التاريخ العفن».

في نهاية الكتاب، تبلغ الأمانة والشعور الضاغط بالمسؤولية في حمل رسالة الكتابة، ذروتها في هذه الكلمات القصيرة التى يخطها يراع آل احمد :

«... لم يحمل هذا العبئ الا أنا . لا استطيع أن اضعه ارضاً فى وسط الطريق واهرب. علىّ أن ابلغ به نهاية الطريق ...».

الاسفنجات البحرية

يكتب مكسيم غوركي في قصة «كنوالوف» : «اعتقد ان هؤلاء الكتاب كالاسفنجات البحرية لا عمل لهم سوى امتصاص اوجاع الناس وآلامهم. انهم مزودون بعيون وقلوب خاصة لهذه المهمة. اذا سمروا الاعين لمدة طويلة على الحياة، فلن يخرجوا بسوى البؤس والمسكنة، فينثرون كل هذا البؤس والمسكنة على اوراق الكتب التى يؤلفونها. على كل حال، انهم يفهمون اكثر من الاخرين، وعليهم أن يبصروهم بمفاسد الحياة»١.

وقد كان آل احمد واحداً من هؤلاء الكتاب المعدودين الذين قال عنهم مكسيم غوركي انهم لا عمل لهم في هذه الحياة سوى امتصاص اوجاع الناس وآلامهم، فهم بعيونهم البصيرة وقلوبهم اليقظة متواجدون دوماً عندماسى الجماهير ومتاعبهم. وقد صور آل احمد هذه الماسى في مجاميعه القصصية الخمس الكبيرة : «الزيارات المتبادلة، عن الألم الذي نعاني، سه تار، المرآة الزائدة، سيرة الخلايا» وكذلك في روايتة المعروفة «مدير المدرسة»

١ - عن كتاب «سنوات العمر» ترجمة هوشنك مستوفي.

وهو في كل هذه الاعمال كاتب واقعي ينشد العدالة الاجتماعية.

مجاميعه القصصية تشي بتنوع الشخصيات والمشاهد وسعة آفاقه وتجاربه العميقة في الحياة الاجتماعية ومعرفة الناس. في كل واحدة من قصص «سه تار» أو «المرأة الزائدة» نواجه شخصيات مختلفة من شتى طبقات المجتمع تعبر عن جوانب من الحياة الايرانية وانساق التفكير، والروح والاخلاق الايرانية.

لو اراد باحث اجنبي ان يختار من بين الكتاب الايرانيين المعاصرين كاتباً تصور اعماله احوال الايرانيين وواقعهم اكثر وادق من سائر اقرانه، لأختار بلا شك آل احمد و اعماله بكل ما تزخر به من اصالة وبكل ما فيها من تنوع في الشخصيات والاحوال.

اعماله القصصية تضمنت على وجه التقريب كافة الانماط البشرية المشهودة في البيئة الاجتماعية : عازف يتحرق الى أن يكون فناناً حقيقياً ويكره أشد الكره أن يغدو عازفاً تجارياً مبتذلاً. المرأة التى تترك طفلها على قارعة الطريق من شدة اليأس. رجل وسواسي يريد أن يشطف نفسه دائماً. زوجة بائع متجول تتوق الى صبغ اظافرها على غرار نساء الاحياء الراقية. اطفال مساكين يبيعون التين للمسافرين في المحطات، عمال الميناء، مجالس التعازي في البيوت، الشرطي الذي يلاحق ناشل فتاة هي نفسها سارقة، رجل يتحرق للسلطة، وحياة محاسب مسكين ... كلها احوال اجتماعية حقيقية نقرؤها في مجموعة «سه تار».

وفي مجموعة «المرأة الزائدة» نطالع صنوفاً اخرى من الشخصيات نظير «خداداد خان» و «نزهة الدولة» تنم بدورها عن براعة آل احمد في تصوير الشخصيات الايرانية، واذا اردتم الاطلاع على افضل وادق الصور للحياة العائلية الايرانية في الطبقة المتوسطة، عليكم قراءة القصة القصيرة «شمس على حافة السطح» من مجموعة «سه تار».

القصة الاخيرة من هذه المجموعة تحمل عنواناً عربياً هو«الكمارك والمكوس» وتروي مقتطفات من رحلة آل آحمد في شبابه الى العراق. وهي على الرغم من عنوانها الفض قصة زاخرة بالعاطفة، تتخذ كبعض قصص آل احمد الاخرى شكل الربورتاج الى حد ما، الا انها ذات مضمون انساني يجعل منها قصة شاعرية يسمع القارئ في نهايتها خفقان قلب رؤوف رقيق لكاتب ذي نزعة انسانية وعاطفية اصيلة اسمه جلال آل احمد.

مدير المدرسة

وهي من افضل ما كتبه آل احمد في حقل القصة والرواية. واعتقد انها رائعة في تصوير الشخصيات، ونموذج لأكثر قصص الامس الايراني واقعيةً وبلاغةً. ومع انها قصة آل

احمد نفسه الذي كان لفترة ما مديراً لمدرسة، حيث سجل فيها ما واجهه وحل به في هذه الوظيفة الحساسة بكل دقة وتفصيل، الا ان القارئ يتصفح في هذه الرواية ذات المئة وسبعين صفحة المجتمع الايراني برمته في واحد من اكثر مشاهد الحياة حساسية وخطورة، ويتعرف على الايرانيين كما هم عليه وكما يفكرون، لا كما تظهرهم الاقنعة التي يخفون بها وجوههم ... يتعرف على الاطفال، وعلى الاباء والامهات، والمعلمين والمدراء، واصحاب الرساميل، والعاملين في السلك التعليمي، وعلى شخوص من كل الشرائح والفئات . وبكلمة ثانية «مدير المدرسة» رواية مترعة بالسخرية والالتفاتات والصور التي تضعنا وجهاً لوجه امام الاشخاص والاماكن والطباع الايرانية، ولا يبدو ان آل احمد اختلق شيئاً ابداً لهذه الرواية. ومع ان السرد الروائي فيها اقرب الى كتابة التقارير، بيد أن المتلقي يشعر انه يقرأ رواية مزدحمةً بالاحداث الشيقة، ويترقب كل حين ما سيحدث لاحقاً، وما ستكون عاقبة مدير المدرسة، هذا الذي يبدو انه يختلف عن كل مدراء المدارس :

«... لكن السيئ في الأمر هو أن راتبي كان أعلى الرواتب في القائمة الشهرية. كأعظم المعاصي في صحيفة الاعمال. كنت اقبض ضعف راتب الفراش الجديد».

«خجلت من الارقام المتهالكة لرواتب الاخرين وكأنني قد سرقت اموالهم. تمشيت ساعتين كاملتين، وقدمتهم كلهم علىّ عسى ان تكون هذه كفارة اعمالي. وطوال هذه الساعتين لم يخطر ببالي حتى مرة واحدة أن أياً منهم ليس له حتى ثلث سابقتي في الخدمة، ولا حتى نصف الاوراق التى لففتها ولا أدري في أية زوايا الحياة دسستها. الان رحتُ اصطنع لنفسي مثل هذه الفلسفات والتبريرات».

«لم اشعر يومذاك بسوى أن الاخرين حينما تكون رواتبهم قليلة لهذه الدرجة، لا تستطيع الا ان تشعر بأنك مسؤول حتى لو كنت موظفاً مغموراً لدى الحكومة. ولهذا لم استطع اقناع نفسي. ثم عندما خلا المكان ووقعت بعض الاوراق، وقعت عين أمين الصندوق علي ّووضع في يدي ستمئة تومان كان قد سرقها، اللعنه! »

هذا نموذج لشعور عميق بالمسؤولية في ضمير كاتب رسالي يقول عنه سارتر : «اينما وجد ظلماً و اجحافاً، اعتبر نفسه مسؤولاً» خصوصاً حينما يتولى وظيفة تربوية خطيرة في منصب رسمي.

يمكن تقديم شروح تفصيلية لكل واحدة من القصص القصيرة لال احمد، ناهيك عن رواية طويلة مثل «مدير المدرسة» و لتعريف القارئ بهذه الرواية نورد فيما يلي مقاطع منها :

١.«... لوحة المدرسة ايضاً كانت كبيرة و مقروءة بما فيه الكفاية. تصرخ عن بعد مئة

متر: كان قديراً كل من...١ كل ما شئتم ... بأسدها وشمسها٢ في الاعلى. الاسد يحفظ توازنه بصعوبة وعلى اكتافه تقبع السيدة الشمس بحاجبيها الملتصقين المتداخلين».

٢ـ «... تعرفت على طبيب الصحة ايضاً. ما يزال غير قادر على اخفاء لهجته القزوينية بين المصطلحات الطبية الاجنبية. كان المقرر ان يأتي مرة في الشهر بحثاً عن التراخوما، عسى أن يعمى عيون اطفال الناس. يقلب اجفانهم بسرعة بطريقة لو اراد ان يستعملها معي لما سلم من صفعتي. كتب لنا مركوركروماً وقطناً ولفافات صحية نستلمها من دائرة التربية لكنها لم تكن متوفرة هناك، فاضطررنا للاستعانة بوالد أحد الطلاب كان طبيباً في دائرة صحة الجيش، اعطانا ما نريد مجاناً».

٣ـ «... أخذ المعاون يعلمني أن استلم بدل تسعة احمال من الفحم، ثمانية عشر حملاً مثلاً، ثم نتصالح مع دائرة التربية. هي هي ! لم استطع ان افعل شيئاً حتى الظهر سوى أن اكتب استقالتي وامزقها عدة مرات ... هكذا يضعون الخطوة الاولى امام اقدام الانسان».

٤ـ «... ها قد تبينت احوال كل اعضاء الاتحاد. بحسب درجة احترامهم لكل شخص، يمكن ان تخمّن ما هو عمله. حاجي آقا كان أمين صندوق. ورئيس الاتحاد، تذكرت اني قرأت اسمه في عناوين الصحف قبل سنوات. كان بانتظار وزارة، لكنه قنع الان بـ«نعم سيدي< يسمعها دائماً من اعضاء الاتحاد في محلته، وبمتابعة شؤون الماء والازبال والكهرباء في المنطقة، ولاريب انه كان منتفخاً جداً لأن العاملين في مدرسة المحلة زاروه الى مكتبه. خطر ببالي كم كان جميلاً ان يقنع كل الوزراء مثله، ويفتحوا وزاراتهم في ازقتهم ومحلاتهم».

٥ـ «... حتى لو كنت مدير مدرسة، فعليك ان تغلف شخصيتك وكبرياءك بأوراق ملونة وتضعها على قبعتك حتى لا تتعفن، وتخيطها بقماش اخضر وتعلقها على صدرك حتى لا تصيبك العين. حتى لو اردت ان تكون معلماً زقنبوتياً، ولم تذهب بعيداً؟ حتى لو كنت فراشاً يقبض تسعين تومناً في الشهر، عليك ان تغطّ في الوحل الى أم رأسك ... فلن تكون مرتاح البال حتى هنا ...».

٦ـ «... وجدت انه لا فائدة من هذا، وعليّ أن اطلب العون من شيء ما، من سلطة، أو منصب أو هندام، أو شيء آخر. اغلظتُ صوتي وقلت : «انا ...» اردت ان اقول انا مدير مدرسة، لكنني ندمت فوراً. كان سيقول حتماً : واي كلب هو مدير المدرسة ؟!»

٧ـ «... ينبغي ان تكون مديراً، أي تقف في طرف الساحة وتنظر كل يوم وشهر لاصطفاف المعلمين والطلاب، حتى تفهم ما معنى شهادة الدبلوم او الليسانس؟ معناها أن صاحب هذه الشهادة قضى ١٢ أو ١٥ سنة بكاملها يكابد ضغوط الفزع أربع أو عشر مرات في كل

١ - شطر شعري معروف جداً لابي القاسم الفردوسي تمامه (توانا بود هر كه دانا بود) بمعنى : كان قديراً كل من كان عالماً. واورده آل احمد منقوصاً.

٢ - الشعار الرسمي لايران قبل الثورة.

سنة، طاقته المحركة هي الفزع والفزع والفزع».

٨ ـ «... قبل هذا لم يكن بمقدوري ان افهم كيف يمكن الوصول من ادارة مدرسة أو وظيفة بسيطة في دائرة الى الوزارة، او كيف يمكن تمني هذا الشيء اصلاً».

«حفنة تواقيع جاهزة، كل واحد منها لشخصية معينة، ثم نصف ذراع لسان لبق تسحب به الافعى من جحرها، أو تلحس به كل الاماكن، وشكل مميز، ليس شكلاً واحداً، بل ١٢ شكلاً، كحزمة الملاعق، كل واحد منها لمهمة معينة ...».

«مدير المدرسة» رواية حافلة بالسخرية والنقاط الدقيقة وصور الشخصيات والاماكن وهي بمجموعها صورة للمجتمع الايراني آنذاك والمتاعب والمآسي الفردية والاجتماعية.

صور آل احمد

لامراء ان جلال آل احمد اكثر الكتاب الواقعيين المعاصرين في ايران مثابرة، واغزرهم تصويراً لصنوف الشخصيات في المجتمع الذي عاش بين ظهرانيه وكتب كذلك عن اماكنه ومحلاته.

ولعل تعريف شخصيات قصصه على نحو السرعة، يستلزم بحد ذاته دراسة مستقلة. ولكن من أجل ان نكون قدمنا نموذج لتصويره الاماكن والاشخاص في كتاباته، نعرض للقارئ المقاطع التالية:

صوره امرأة :

«... السيدة نزهت الدولة ذات قامة طويلة وهذا ليس بالشيء القليل. مع أن انفها رفيع جداً، الا انه مائل الى اليمين بعض الشيء. طبعاً لا تتصوروا انه اعوج، ابداً، فلو كان اعوج لسارعت واجرت له عملية تجميل بالجراحة البلاستيكية لتعدّله. صوتها رقيق جداً. حينما تتكلم لا تعبس ولاتقطب اطلاقاً، وحاجباها وطرف فمها لايتحركان اصلاً حينما تضحك. لايمكن اهدار خمسمئة تومان كلفه الماساج على ضحكة عريضة واحدة.

تصبغ شعرها مرة واحدة في الاسبوع. يجب القول ان لها فكين عريضين حقاً. والاجمل منهما اذناها الصغيران والظريفان جداً. لكن المؤسف انها مضطرة للتضحية بأحد هذين الاذنين الظريفين في سبيل تموجات شعرها .... لف شعرها اكثر انتظاماً من تفريش اسنانها اليومي. وصحيح أن عنقها طويل بعض الشيء، لكنها تخفيه بمنديل زينة تلفه عليه مرتين او ثلاثاً، فلا يستطيع أحد ان يفهم شيئاً عن طول عنقها» .عن كتاب «المرأة الزائدة»

صورة مكان :

«... تآكل اطراف السواقي، وضيق الازقة، والاسوء من كل شيء، الاحجار الكبيرة غير المصقولة التى لا أحد يدري لماذا وضعوها في بطن كل الجدران الطينية عند كل عطفه، كانت المشكلة الاكبر في هذه الشبكة من الازقة. وهو بائع جوال فى الازقه لا يستطيع بخرجه الثقيل هذا المرور عبرها بسهولة. فوق رأسه وعلى الارضية الطينية للجدار، وبعيداً عن ايدي المارة، ما تزال هناك بقايا كلمات قاموس طويل عريض مسحت امطار الربيع بعض اجزائها فيما مسحته من طين الجدار. وفوقها عند طرف السطح كوز مكسور معلق من ماسكة بحبل لابد انه طرف حبل غسيل يستعمله سكان المنزل».

من قصة «الطلاء الوردي» في مجموعة «سه تار»

صورة معلم

«... معلم الصف الاول نحيف شديد السمرة، بلحية خفيفة جداً و شعر قصير وياقة مقفلة، بلا ربطة عنق، يشبه الكتاب الجوالين عند ابواب البريد، بل ويبدو أحد الخدم. كان صامتاً ومعه الحق في هذا. يمكن تخمين ان مثله لا يتجرأ على الكلام الا داخل الصف الاول، وهو لا يتكلم هناك الا عن حرف الـ (آ) ذي المدة فوقه، والحرف الوسطي وما الى ذلك. معلم الصف الثانى قصير دحداح يصرخ بدل ان يتكلم. في عينه احولال، ولم استطع منذ اليوم الاول أن افهم الى اين ينظر حينما يتحدث مع احدهم. يقهقه عالياً بعد كل صرخة قصيرة يطلقها، واضح انه مهرج - معلم ...».

من رواية «مدير المدرسة»

صورة صالة المدرسة وخارطة العالم على جدارها

«... بعده كان هناك صالة المدرسة. خالية وكبيرة فيها عمودان ابيضان مربعان وفي اقصاها عدة مناضد ومصطبات محطمة. الجدار المقابل مغطى بصور الابطال والفتيان والعدائين السود و رافعي الاثقال المصريين «هدية من عليمردان هندي للابتدائية ...»

«كعلامة للمصنع الذي انتجها كتبت في اسفلها كلمات بخط ردئ، وازرق البحار يشبه ماء فم انسان ميت، وبحيرة الخزر بدت كأنها «بتة جقة »[1] وسكك الحديد كلها عريضة وعامة، تتجاوز حتى كرمان، وجزر اندونيسيا ملتصقة كلها بسنغافورة، وكل قطعة من اسفل الخارطة لها لون مختلف، وقد شكلت مجموعة الالوان بقجة مرقّعة، وكل قطعة صغيرة لها حدودها الدالة على استقلالها كبلاد ذات جيش و علامة وعملة وطوابع بريدية وقيل

١ - ورقة شجرة معقوفة الرأس كثيراً ما يستخدمها الايرانيون لتزيين الاقمشة.

وقال وسجون والقاء قبض، وكل واحدة في يد أمير أو اقطاعي أو شيخ يقودها مع عائلته او قبيلته صوب طريق الحرية والاعمار !».

من رواية «مدير المدرسة»

صورة رجل دين

«... كنا نلوث السجادات والبسط بالثقافة ونسير ! يبدو انهم ألقوها على بعضها ثلاثةً ثلاثة ... رجل دين بتبّان ابيض وخشتق واسع وقف يصلي. حينما رفع رأسه من السجود رأيت لحيته للحظة. جاء صاحب البيت لاستقبالنا بلهجة يزدية واضحة ... كان تاجر سجاد ... وجرنا الحديث الى سوق التصدير الى أن جاء السيد الحاج [رجل الدين] من ... ! نهض ولبس سرواله امامنا وعدّل)....(و قال : مساكم الله بالخير ...)»

من رواية «مدير المدرسة»

وجه من الماضي

«... وصل واحد آخر بيده سماعة طبية يرتدي البياض وتفوح منه العطور بحركات تشبه ممثلي السينما. ألقى السلام. حرّك صوته شيئاً صغيراً في قعر ذاكرتي، ولكن لم تكن هناك حاجة للفضول والتحري. أحد تلاميذي قبل لا أدري كم سنة. عرف نفسه بنفسه : السيد الدكتور (....) يا له من زمن ! ألقيت كل قطعة من شخصيتك بحماقة من مخزن حماقاتك مثل ذرة في تراب، وقد اخضرت الان. وها أنت ترى انها لا تدل عليك ابداً.

تستطيع ان ترى لون مصانع الافلام على وجهه ... في حركاته وسكناته وانبوب السماعة الملفوف حول يده ... هذا الطفل المتميع واطفال آخرون مثله لا تعرفونهم، خرجوا كلهم من بيضة كانت في يوم من الايام حدود شبابك التى يجب أن لا تتعداها، وقد تكسرت الان وخلت. لم يبق أى شيء لأي منهم داخل هذه الجدران المحطمة ...»

من رواية «مدير المدرسة»

لا تقتصر اعمال آل أحمد على هذه المجاميع القصصية. فرحلاته ومشاهداته التي تعد نمطاً جديداً من كتابة الريبورتاجات صالحت بينها وبين كتابة القصة)احياناً كان آل احمد يكتب القصة على شكل ريبورتاج(خليقة بكل تدبر و تأمل، اذ يمكن كتابة الكثير من مضامينها واسلوبها النثري وما فيها من تصورات فكرية واستعمالات ادبية. كما ان ترجماته

تدل بدورها على منهجه الادبي والفكري واحاطته بالادب الغربي.

من حيث تصويره لماسي الناس وبؤسهم، وهو ما يتجلى بأرقى صوره في مجاميعه القصصية «سه تار» و«الزيارات المتبادلة» و«المرآة الزائدة»، يماثل آل احمد كتاباً روساً من قبيل مكسيم غوركي و دوستوفسكي.

على أن القمين بالملاحظة والاشارة هو الاستقلال الفكري الذي تمتع به آل احمد، وايرانيته المحضة وعدم انهزامه او انبهاره امام الحضارة الغربية، وعلامات الاصالة والمعنوية الشرقية المتجسدة بكل جلاء في كافة كتاباته.

كتابه«نزعة التغريب» مع انه لم يكن جديداً في مضمونه الذي يفضح مفاسد الحضارة الغربية الصناعية، حيث سبقه الى هذه الطروحات باحثون آخرون نظير احمد كسروي في «الطباع» و الدكتور فخرالدين شادمان في «مأساة الغرب»، بيد أن بيانه الادبي وتصوراته المتهورة للتاريخ، اضفت على «نزعة التغريب» قيمة ادبية وفكرية مختلفة، خصوصاً و ان آل‌احمد ابدى عن نفسه بسالة منقطعة النظير في فضح مفاسد العهد السالف.

النثر الغاضب لال احمد

ليس نثر آل احمد في صراحة نثر «صادق جوبك» و لا بجزالة نثر «صادق هدايت» و لا ببساطة وعفوية نثر «بزرك علوي»، الا انه يتحلى بفصاحة وقوة، وربما متانة وقاطعية خاصة لا نلفيها في نثر أي من اولئك الكتاب الثلاثة. وربما كان السبب هو أن آل احمد كان معلم ادب وملماً بالعربية ويمكن اعتباره «أديباً».

ثم ان نثره نضج في الحقل الصحفي واشتد عوده في كتابة المقالات، وصقل في كتابة القصة. فأعماله مثل «نزعة التغريب» أو «قشة في الميقات» بغض النظر عن مضامينها، لها قيمة مميزة من حيث الاسلوب النثري، وحتى مقالته التي كتبها مبكراً في ذكرى صادق هدايت تفصح عن قدراته الفنية في الصياغة النثرية.

يكشف نثر آل‌احمد عن وجه غاضب و عصبي لكاتب كأنه يمسك بيده سوطاً بدل القلم. واستطيع أن أسمي نثره «النثر الغاضب»، نثر خلقت كل حروفه و كلماته وعباراته اعصاباً متوترة.

قلما نجد كاتباً يكون في كتاباته غاضباً وعصبي المزاج كما كان عليه آل احمد، الى درجه اننا نسمع احياناً صوت اصطكاك اسنانه في ثنايا السطور.

مخاطبة القارئ بصورة مباشرة واستخدام ضمائر المخاطبة من دون أية رتوش أو

مجاملات، بل و ببعض اللوم والعتاب احياناً، مع انه ينم عن لون من الصدق والبراءة في كتابات آل احمد و عن رفع كل الحجب بين الكاتب والقارئ، الا انه من جهة اخرى يضفي على نثره نمطاً من الفضاضة والشدة والصلف.

ومن السمات الاخرى لنثر آل احمد عدم الاتيان بالفعل في آخر الجملة،١ أو حذفه من الاساس، واختصار الجمل بنحو ملحوظ بينما تكون المقاطع جد مطولة وتمتد احياناً لتستغرق عدة صفحات. انها سمات تسبغ على نثر آل‌احمد خصوصيته واصالته وتشي في الوقت ذاته بغضبه وانفعاله.

اذا كنا نلاحظ جوبك في اعماله شخصية جادة و عابسة، ونلمح وجه علوي في كتاباته يائساً حزيناً، فان وجه آل احمد ينبسط تارة بابتسامة ساخرة، وتصطك اسنانه تارة اخرى من قرط الغضب، الا انه يبقى في كل هذه الاحوال صادقاً طبيعياً بلا أية اقنعة، مضافاً الى كونه متمرداً ملعلعاً صاخباً...

في سنواته الاخيرة، كانت سمرة وجهه قد ازدادت بفعل الشمس واكتسبت مزيداً من الصلابة والعزم يحكيان اصراره على مواصلة الطريق الذي سار فيه، وكنت اتمنى دوماً ان يكون مصيره في سوح الصراع الاجتماعي والسياسي افضل من مصير ميرزا آسدالله في كتاب «نون والقلم» فلا يقول مثله : «حسناً، سوف نأتي رغم علمنا اننا لن نداوي أي وجع من اوجاع الزمن».

فهو بخوضه في الكثير من المشكلات والاوجاع باقتدار وامانة وصدق، لم يؤد الواجب الرئيس للكاتب فحسب، بل وقطع الخطوة الاولى باتجاه المعالجة ايضاً.

في كل واحدة من قصص آل احمد ثمة استعراض لأحد اوجاع المجتمع ومشكلاته. فمثلاً لو أراد شخص الاطلاع على متاعب المراجعات الادارية والروتين القاتل والبيروقراطية في بلادنا، عليه قراءة قصة «دفتر الضمان» لال احمد. وحتى في كتاباته غير القصصية لم يفتأ يستعرض المشكلات والالام التي تعاني منها شرائح الشعب المختلفة.

وهو لا ينسى تحري الالام حتى في رحلاته ... وربما كانت الصحافة وملابساتها احدى اهم المعضلات الثقافية في مجتمعنا. وقد أصدر آل احمد عدة رسائل بعناوين «الصحف المزوّقة» و«ثلاث مقالات اخرى» تناول فيها هذا الهم الذي قلما اولاه أحد نصيبه من الاهمية، ومع أنه جرح يتفاقم ويزداد قرحاً يوماً بعد يوم، الا ان البعض يخالونه مليحاً كخال في طرف الشفاه !

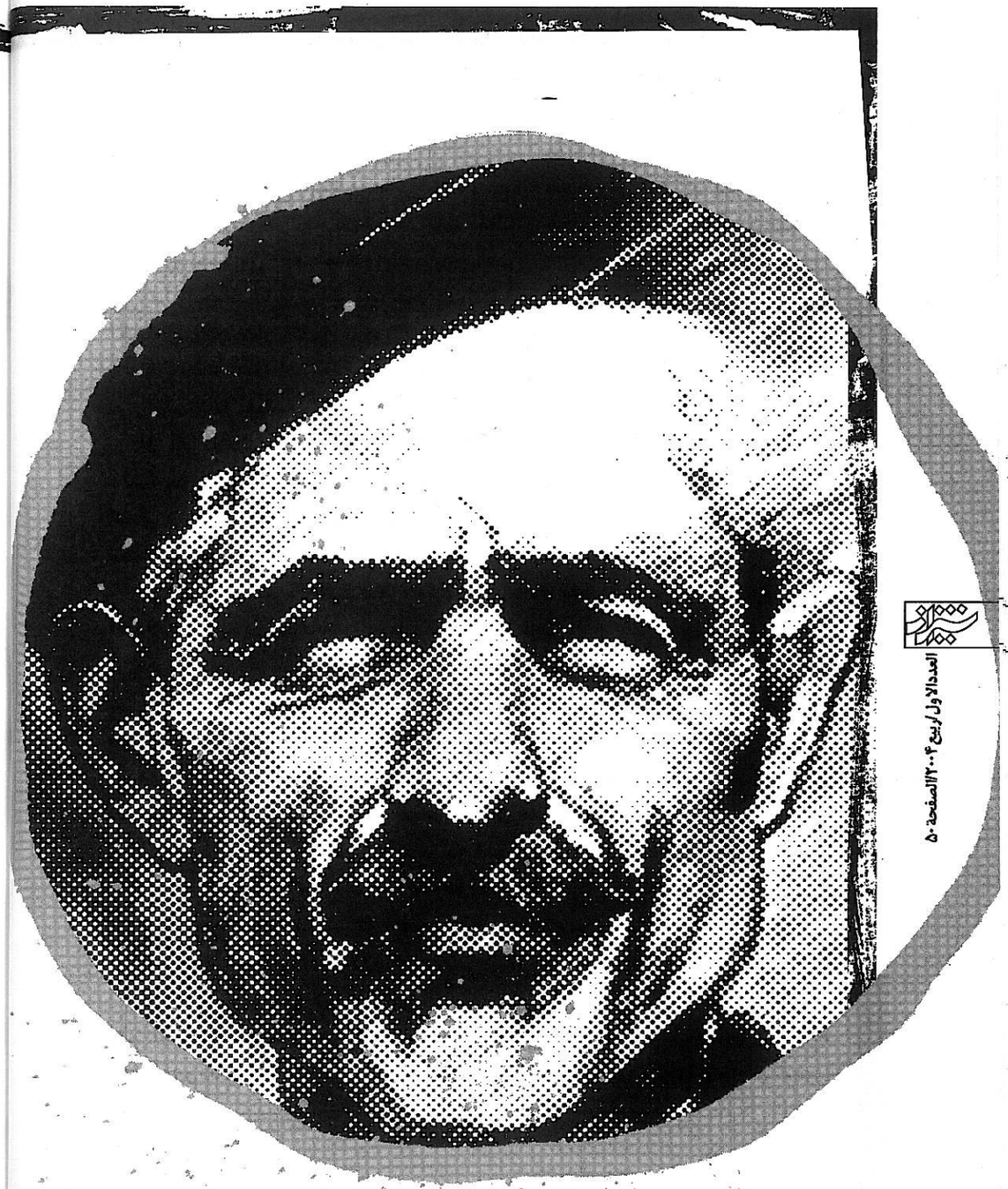

قروح الفؤاد

ربما كانت المرة الاولى التي شاهدت فيها جلال آل احمد هي تلك التي جمعتني به في صالة المحاضرات بالمعهد العالي : كان شاباً بخلاف ما آل اليه في سنواته الاخيرة، ابيض الوجه باسم المحيى مليئاً بالحيوية والتوثب جلس في الرتل الاول من الحضور في الصالة التي كانت سيمين دانشور - مؤلفة «النار المنطفئة» و«سيوشون» لاحقاً - تدافع فيها يومذاك عن رسالتها للدكتوراه في الادب الفارسي.

كان آل احمد في الرتل الاول من الحضور مركزاً ذهنه واسماعه الى درجة انني لم افهم هل هو غارق في دفاعات دانشور عن رسالتها، أم أنه هائم في سيمين دون ما تنطق به. بعد ذلك حينما تزوجا وشكّلا زوجاً أدبياً معروفاً، ادركت في اي بحر كان قد غرق جلال يومها. والان بعدما انقضت كل تلك السنين، يمكن سبر اغوار ذلك الهيام بصورة افضل.

بنفس الشوق الذى كان ينظر به جلال يومئذ لسيمين وهي تدافع عن رسالتها للدكتوراه، وبنفس نظرة الاستحسان النامية عن اعجابه بالفن والفنانين وعن اخلاصه للجماهير الذواقة، كان دائماً في قلق ممض على الفن والفنانين ومصير الكاتب والكتابه في بلاده. في كل مرة كنت أراه، كان يبدي اسفه لضياع عمري في الصحافة، وفي المرة الاخيرة حينما سألني عن مشروعي الحالي وقلت له انني مشغول بتنظيم المثنوي حسب مضامينه، واشرت اثناء شرحي للتفاصيل الى عمق المثنوي فقلت ان المثنوي يجر الانسان الى الاعماق كما تفعل طحالب البحر العميق حينما تلتف حول اقدام السابح، اعجبه هذا التعبير جداً و اوصاني ان اكتبه في عملي. كأنه استخدم كل عواطفه في سبيل تحسين مصير حرية الفنان و رسالة الكاتب الباحث عن الحقيقة.

في قصة بعنوان «قروح الرمانة» صدرت في «كتاب الشهر» نراه يتطرق مرة اخرى لرسالة الكاتب مما يعيد الى الذهن ابياتاً مؤثرة لـ «آلفريد دى موسيه» يروى فيها أن انثى طائر جارح حلقت يوماً بحثاً عن صيد لفراخها، لكنها لم تجد شيئاً وعادت خالية المنقار الى صغارها في العش، ولأنهم كانوا يتضورون جوعاً وما كان بمقدورها مشاهدة منظرهم على هذه الحالة، راحت تنقر صدرها وتدميه لتستخرج شيئاً من كبدها تلقمه فلذات كبدها ... أوليست هذه هي مهمة الكاتب الاصيل الذي يشعر بالمسؤولية من اعماق ضميره ؟ ثم اليس ما يقدمه الفنان الحقيقي انما هو قطع مجتزأة من روحه وكيانه؟ ألا يصح القول أن نتاجاته انما هي قروح فؤاده؟